إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

.

ليستَتِ الخِبْرَةُ ما يَحدُثُ لكَ،
وإنَّما مَا تفعلُهُ بما يَحدُثُ لكَ.

ألدوس هكسلي

الضَّربَة لا تُرْعِب..
ما يُرْعِبُ هو انتِظارُها.

ألفريد هيتشكوك

سَكبَ المُحقِّقُ شَكيب مْدَوَّر لنفسِهِ كأسًا منَ الويسكي ووَضعَ فيه قِطعتَي ثلج، ثمَّ خرَجَ إلى الشُّرفةِ المُطلَّة على مَدينةِ لندن المُترامِيَة. على ضِفَّتَي التّايمز أبنيَةٌ تعودُ لقرون، وكلَّما ابتعَدتَ عنه يُصبحُ البناءُ عَصريًّا حَديثًا، تنبَثِقُ بينَ الفينَةِ والأخرى شواهقُ مُكعَّبَةٌ ومُستطيلةٌ سابِحَةٌ في الفَضاء، تَعكِسُ السَّماءُ سُرياليَّاتِ ضَبابِها وشُحوبِها على جُدرانِها الخارجيَّةِ المُدفوفَةِ بالزُّجاجِ الأسوَدِ حينًا والفِضِّيِّ أحيانًا. وأمَّا في اللَّيلِ فهيَ أسرابٌ من حَشَراتٍ عِملاقةٍ مُضيئَة! أشعَلَ المُحقِّقُ سيكارَه وراحَ ينفُثُ المَجَّةَ في الهَوَاء. كانتِ الأفكارُ كواسِرَ تُحوِّمُ حولَ حِكايَةِ صَخر سويدان، التي كانَ يلتَهِمُها بمِسمَعَينِ نَهِمَينِ واهتِمامٍ فضوليّ، بل يكادُ يكونُ صبيانيًّا، منذ حَوَالَي ساعَةٍ في ذلكَ المَقهى PRUFROCK Coffee المشرفِ على النَّهرِ الهادئ هدوءَ أنسَامِ أيلول. وراحَ يُحلِّلُ ويَستنتِجُ ويَربِطُ ويَفصلُ بينَ ما كانَ بحَوزتِهِ من معلوماتٍ عن واقِعَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ وما استَجَدَّ لدَيهِ بعدَ سَرديَّاتِ صَخر المُشوِّقَة، والتي بدَأتْ شَبيهةً بسَمَاءِ لندن وانتَهَتْ عندَ قابِ قوسَين أو أدنى منَ مَلحَمَةِ الحُبِّ المُنتَحِر. ما كانَ بحَوزَةِ الرَّجُل جَريمَةٌ مؤلَّفَة من جُثَّتَين: رَجُلٍ وامرأةٍ عاشِقَين، وبعضُ الاستِفهامَاتِ الغامضَة حولَ زمَانِ حدُوْثِ وفاةِ

كلٍّ منهما! وشُبُهاتٌ لَجوجةٌ حَوْلَ إقحامِ كاميرا المُراقبَة لِصَخر سويدان في القضيَّةِ، فجَعَلَتْهُ في طابورِ شَخصيَّاتِها اليَوميَّة. ثمَّ ذلكَ التَدَخُّلُ السِّياسيِّ الحازم من جانبِ ذَوي غيث الرَّاسِي ومن جانبِ غسَّان الجُردي أيضًا.. السِّياسِيِّ الذي ورَدَ اسمُهُ في خَبَريَّاتِ المَقهى المُمتِعَة.. حيثُ حافظَ المُحقِّقُ شَكيب على تمثيلِ دَور تَجَاهُل العارف. ولكنَّهُ في سَريرَتِهِ أدركَ بسُهولةٍ أنَّ الحَديثَ يدورُ عن السِّياسِيّ غسَّان الجُردي وسَائِقِهِ، والسّائِقُ هو مُنير سويدان والدُ صَخر سويدان. ولكنَّ للسَّائِقِ مُنير ولَدًا واحِدًا هو صَخر، ولا بنات! فتكونُ النَّتيجَةُ الأولى عندئذٍ، أنَّ صَخرًا هو نفسُه الولَدُ اليَتيمُ بطَلُ القصَّةِ التي يرويها بنفسِهِ لشَكيب مْدَوَّر، مَعقولةً وحَتميَّة. صَخر ولَدٌ يَتيمٌ في مَيتَم الرَّاهباتِ العازاريَّة.. ثمَّ جاءَ مُنير سويدان سائِق غسَّان الجُردي وتبنَّاه لأنَّهُ لم يُرْزَقْ بَنينًا. والنّاتِجُ الثَّاني الأكثرُ دَهشَةً وحُضورًا من سابقِهِ، والذي راحَتْ صقورُ أفكارِ المُحقِّق تقتاتُ منه بتأنٍّ.. هو مَدَى صِحَّةِ أبوَّةِ غيث الرَّاسِي دونجوان واقِعَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ للولَدِ اليَتيم بَطلِ الحِكايَة! فلو صَدَقَتِ المَقولة.. فهذا يَعني أنَّ صَخر هو ابن غيث الرَّاسي والِدِه الحَقيقيّ. وهذا ينقلُنا إلى بَيتِ القصيد جَريْمَةِ انتِحارِ العَاشِقَين، ليَنتفِضَ كالسِّحرِ رابطٌ.. وربَّما تَحَوَّلَ إلى دافِعٍ قويٍّ مُباشَر يَشْكُلُ طرَفَي الجَريمَة: مُنفِّذَها صَخر سويدان وَضَحيَّتَها الأولى غيث الرَّاسي.. فيما تبْقَى الضَحيَّةُ الثّانيَة العَشيقَةُ غريبَةً على المَشهَد! وتَطيرُ ظنونُ المُحَقِّق وتَخميناتُهُ إلى والِدَةِ صَخر الحَقيقيَّة.. أتُرَاها العَشيقَةُ المُحْتمَلة.. وقتيلةُ الهَوَى الثَّانيَة في تِلكَ الواقعَةِ الغامِضَة؟! رَمَى شَكيب مْدَوَّر قامتَهُ المَديدَة فوقَ الكنَبَةِ على الشُّرفةِ الفَسيحَة، وحَدَّثَ نَفسَهُ:

– لقد صَدقَتْ توقُّعاتي.. تَسجيلُ الكاميرا أوَّلاً والآن العلاقة المباشَرَة بالضَّحيَّة، وغدًا مَسَاءً في القِسمِ الثَّاني من هذِه الحِكايَة، الدَّافِعُ إلى القَتل. إنَّها حقًّا قَضيَّةٌ مُثيرَة.

وفي اليَومِ التَّالي مَسَاءً، قُرِعَ جرَسُ بابِ غُرفةِ المُحقِّق في الفندق، فتَحَ البابَ وكانَ صَخر، كما وعدَه هذا الأخيرُ أن يَجيءَ عندَ السَّادسَةِ والنِّصف. قال المُحقِّق:

– أنت دَقيقٌ في مواعيدِك يا صَخر. ومُصِرٌّ أيضًا أن تُنهيَ لي قصَّتَكَ بكامِلِها من ألِفِها حتى يائِها. أليسَ كذلِك؟

– وهل يظهرُ عليَّ غيرُ ذلِك سيِّد شَكيب؟ أجابَ صَخر بسُؤال.

– إسمَع.. سأطلبُ بعضَ المازَة، وأشَغِّلُ النّظامَ الصَّوتيَّ وموسيقًى هادئَة.

– موافق.

– خذْ راحتَكَ يا صَخر أنتَ في بَيتِك.. والمَنظرُ ساحِرٌ هنا على الشُّرفَة. قالَ المُحقِّق.

ثمَّ خرَجَ صَخر إلى تلكَ الشُّرفة ورأى مدينةَ لندن في اللَّيل، والأبنيَةَ المُستطيلةَ المُضيئَة في أُمسيَةٍ مُنعِشَة من أخرياتِ الصَّيفِ الإنكليزيِّ اللَّطيف. واتَّصَلَ شَكيب مدَوَّرَ من هاتِفِ غرفتِهِ بخِدمةِ المَطبَخ وطلبَ مازةً مشَكَّلةً لشَخصَين، وعادَ إلى صَخر وجلسَ مقابلَه وقالَ:

– تفَضَّل.. أنا حاضر لسَماعِ القِسْمِ الثاني منَ الحِكايَة. وأنا أشهَدُ لمَوهبتِكَ في القَصَص. أنتَ قاصٌّ بارع حقًّا يا صَخر.

فقالَ صَخر وهو يسحَبُ سيكارَتَه ويُشعِلُها:

– ليسَ في نيَّتي أن أصبحَ روائيًّا.. أنا فقط أدقِّقُ في تفاصيلَ مُعيَّنَةٍ.. ولا بُدَّ منها.. لكي أصِلَ بكَ إلى بَرِّ الأمان، ليسَ إلاّ.

وشَرَعَ صَخر سويدان يتَكلَّم.

كانَ أمامَ الصَّبيِّ اليَتيمِ بَطَلِ حِكايتِنا خياران: واحِدُهما أن يعودَ أدراجَه إلى ميتَمِ برمّانا، وثانيهُما أن يَسيرَ في بلادِ اللهِ الواسِعَة حيثما تأخذُه قدماه. بالنِّسبَةِ للمَيتَم فقد تعوَّدَ على نسيانِه وتخَطِّيْهِ بالكامِلِ طوالَ سَنَةٍ ونصفِ السَّنَة عندَ الرَّجُلِ الطيِّب الذي تَبَنَّاه، وأمّا المَدرسَة! فهيَ المُتوَازي الشَّبيهُ بالمَيتَم الذي أحَبَّه الفتى. شَغَفَتِ المَدرسَةُ فؤادَ الصَّبيّ، وهو يُفكِّرُ بالرُّجوعِ إليها ريثما يَرفعُ لهُ المَجْهولُ الحُجُبَ عَن أسرارِهِ. قامَ ذاتَ ليلةٍ وجمَعَ في الحَقيبَةِ الصَّغيرَةِ بعضَ مَلابسِهِ، وبينَها الوَديعةَ الثَّمينَةَ إنجيلَ وَفاء! وخرَجَ على مَهلٍ لكي لا يُحدِثَ ضجَّةً، وخبّأها في شَجَرَةٍ على الطَّريق قريبَةٍ منَ البَيت. وفي اليَومِ التالي صباحًا أخذَ الحقيبَةَ معه وهو ذاهب إلى المَدرَسَة. إنسِحابٌ

تَكتيكيٌّ من مَعمَعَةٍ لاهبَةٍ في هذا البيت لن يَنجوَ من رَشقاتِ حُمَمِها البتّة! تركَ المَدرسَةَ عَصْرًا، ثمَّ لمْ يَرجِعْ إلى البيت.. بل راحَ يَدخلُ في زُقاقٍ ويخرجُ من شارعٍ سَيرًا على قدَمَيه، حتى وصلَ إلى الورَشَةِ قبَيلَ حُلولِ الظَّلام. كانَ قد عزَمَ أن يَنامَ ليلتَه الأولى في ورشَةٍ لعَمارَةٍ يعرفُها في أحَدِ الأحياء، فقصَدَ إليها. كانَ عمَّالُ الورَشَةِ المِصريُّون والهُنود ينامون في تَخشيبَتَين بجانبِها. فاقترَبَ الولَدُ واستأذَنَهم أن يَسمَحوا له أن يَبيتَ ليلةً واحِدَة فقط في العَمَارَة. فأعطوهُ إسفنجَةً وإحرامًا، فشكَرَهُم وقالَ لهم:

– سأنامُ على السَّطح.

سأله واحدٌ منهم:

– إبنُ مَن أنت؟ وإلى أينَ أنتَ ذاهب؟

فأجابَ الغلامُ مُرتجِلاً:

– لقد تشاجَرتُ معَ والِدي.. وأنا هاربٌ من سَوْرَةِ غَضَبِه.

ثمَّ حملَ فرشتَهُ وإحرامَهُ وصعدَ إلى السَّطح، وافترَشَ لهُ بجانبِ جدارِ بَيتِ الدَّرَج واستلقى. ولكنَّ النَّومَ جافاه! شَعرَ فجأةً بنوبَةٍ منَ الضّعف، وخُيِّلَ له أنّه ربَّما تسرَّعَ في مُغامَرَتِه هذه. إلى أينَ هو ذاهب؟ ماذا يُخبِّئُ له المَجهول؟ لا أحَدَ ينتظرُهُ في مكانٍ ما! أينَ سَيَبيتُ ليلاتِهِ التَّاليَة؟ كيفَ سيُؤمِّنُ طعامَه؟ ألفى نفسَه قد تحوَّلَ فجأةً إلى قِطٍّ فارٍّ جائِع يجولُ في أزقَّةِ التِّيْهِ.. وباحثًا في قُمامَةِ العبَثِ عمَّا يُبقيهِ على قيدِ الحياة. وبينا فكرَةُ الطَّعامِ تَخزِزُ خَيَالَه.. سمِعَ وَقعَ أقدامٍ على الدَّرَج.. ثمَّ ظهرَ قدّامَه أحَدُ عمَّالِ الورَشَة، وقالَ له:

– جئتُ أطمئِنُّ عليك. خذْ هذه سَندويش صَعتر وبَندورَة.. لا بُدَّ أنَّكَ جائِع يا ولَد.

– بلى أنا جائِع.. أشكرُكَ من كلِّ قلبي يا معلِّم. قالَ من فَورِه ومدَّ يدَه لأخذِ السَّندويش.

ثمَّ توارى العامِل. وراحَ هو يَزدَرِدُ طعامَه، ويفكِّرُ في أنَّ الدَّاهِمَ الأكثرَ إلحاحًا تأمينُ قوتِهِ اليَوميّ، وبالتالي فهو يحتاجُ لنقود، ويَعني هذا أنْ يَجِدَ عمَلاً.. أو يقعَ وَقعَةً شَبيهةً

بوَقعَةِ صديقِ المَيتَمِ دوري! وفكَّرَ كذلِكَ في أن يَعملُ في هذِه الوَرْشَة! ولكنَّها قريبَةٌ من البيت، ولا بدَّ أنَّ والدَهُ يبحثُ عنه الآن. وَعانقَتِ السَّاعاتُ مُنتصَفَ اللَّيل.. ثمَّ شيئًا فشَيئًا بدأ النُّعاسُ يتسلَّلُ إلى مُقلتَيه ويَدُ الكرَى تُطبقُ أجفانَهُ النَّاحِلَة. في صباحِ اليَومِ التالي صَحَا باكرًا على ضَجيج وصياحِ العمَّال. قفزَ من رُكنِهِ.. وحملَ فرشتَهُ والإحرام ونزلَ عندَ العامل الذي أقرَضَه إيّاهما وشَكرَه.. ثمَّ تركَ الوَرشَةَ وعادَ إلى مَسيرَتِهِ نحوَ المَجهول في الشّارعِ الطَّويلِ الذي تُحيطُهُ الأشجارُ عن جانبَيهِ، جُنودًا يَحرُسونَ قدَرَ الإنسان العُرفِيّ، نحوَ شمالِيِّ المدينة. وعبَرَ نصفَ النَّهار وهو يَمشي. عندَ الظَّهيرَةِ بدأَ يشعرُ بالجوع.. لم يتوقَّف.. وتابعَ سَيرَهُ حتى انتابَتهُ رَغبةٌ عَميقةٌ للصَّلاة. جلسَ تحتَ الشَّجَرة وَصلَّى لعشر دقائق. ثمَّ عادَ إلى مَسيرَتِه، حتى السّاعةِ الرَّابعَة، وتوقَّفَ أمامَ مَطعم فلافل صَغير. فدخلَ وارتجلَ الكلامَ بكلِّ بساطة.. هيَ حِكمةُ الجائِعين:

– أنا يَتيمٌ يا سيِّدي. لقَدْ هَرَبتُ منَ المَيتَم وليْسَ مَعي نقودٌ الآن.. وأنا جائِع.

فتبادَلَ الجالسُ وراءَ الصُّندوق والذي يعملُ السَّندويشات النَّظَرات مُستَغربَيْن. ثمَّ قالَ له هذا الأخير:

– لا بأس.. سأعملُ لكَ سندويشَتَين زوَّادَة لك، وواحِدَة تأكلُها الآن.

– شكرًا لكَ يا سيِّدي.. أنتَ رَجُلٌ طيِّب. قالَ الفتى والفرَحُ يومِضُ في ناظرَيه.

ثمَّ حملَ سَندويشَتَي الفلافل كأنَّهما صَيدَةٌ موفَّقَة، وقسَّمَهُما لأربَع وَجَبات، كلَّ وجبَةٍ بنصفِ سَندويشَة، وهكذا ضمِنَ غذاءَه ليومَين تاليَين سندويشة فلافل واحِدَة لكلِّ يَوم.. والثالثة راحَ يأكلُها وهو يَمشي. وفي اللَّيلتَين التاليَتينِ نامَ على سَطحِ إحدى البنايات، والتَحفَ بقِطعَتَين من ملابسِه. وفي اليَومِ الثّالِث قامَ باكرًا وسَارَ نحوَ الشِّمال حتى وصلَ إلى شاطِئِ صَيَّادي السَّمَك، وكانَ الوقتُ عَصرًا. كانَ هناك ثلاثُ خيام مصنوعَة منَ القصَب وتَخشيبَتان.. متناثرَةٌ على ذلِكَ الشَّاطِئِ الفَسيح. رآها الغُلامُ منَ الطّريق العامّ، فولَجَ الدَّربَ التُّرابيِّ الضيِّق بينَ الصُّخورِ الفِضيَّةِ في اتِّجاهِ البَحر. دَخلَ تخشيبَةً منَ الاثنتَين.. فكانَ هناكَ رجُلان يتحادَثان وثلاثةُ مَخادِع من أحجارِ الخَفَّان وأدواتُ الصَّيد. القى الصَّبيُّ التحيَّةَ على الرَّجُلَين.. وقالَ مُوَضِّحًا غايتَه:

– أنا يَتيمٌ مقطوع من الشَّجَرَة. وأنا أبحَثُ عن عَمَلٍ. دَعوني أعمَلْ وآكلْ معكم ولا أريدُ شيئًا آخَر.. ولمدَّةٍ قصيرةٍ ريثما يَنجَلي وَضعي وأعرف ماذا سأفعَل.

فقالَ لهُ واحِدُهُما ذو لِحيَةٍ بَيضَاءَ بنَبرَةٍ حازمَةٍ.. وفي عَينَيهِ حَذَرٌ وارتياب:

– يَتيمٌ مَقطوع منَ الشَّجَرَة.. وتريدُ عَمَلاً؟!!

– بلى. أجابَ الفتى بعَفويَّة.

– بل أنتَ لِصٌّ مُحتالٌ مُشَرَّد! إذهَب يا هذا وفتِّشْ عن رزقِكَ في غيرِ ربوعِنا.

فاستوقفَهُ الرَّجُل الثَّاني وسألَ:

– لحظَة! وكمْ مِنَ الوقت ستبقى هنا؟

– صدِّقني يا سيِّدي.. أسبوع أو اثنَين لا أكثر.

– وبعدَ الاسبوعَين.. ماذا ستفعَل؟

– أرْحَلُ.. وسَوفَ أجِدُ عَمَلاً ومكانًا أبيتُ فيه. أجابَ الفتى.

– ولكن.. أينَ وكيفَ كنتَ تَعيش؟!

– في المَيْتَم. قالَها كمِدًا.

فقالَ الرَّجُلُ الأوَّل ذو اللِّحيَةِ البَيضاء مُتذمِّرًا:

– حَتمًا فَعَلَ فَعْلَةً مُشينَة. صمتَ لثوانٍ، ثمَّ عادَ وأضافَ موَجِّهًا الكلامَ إلى الفتى:

– إسمَعْ يا ولَد.. نحنُ لسنا ضالَّتَكَ المنشودَة. ليسَ لنا ذهَبٌ ولا مال. نحنُ نعيشُ "أعطِنا خبزَنا كِفافَ يَومِنا". وصَيْدُنا في السَّمَك هو ثروَتُنا الوَحيدَة في هذه الدُّنيا، فهَلْ تُريدُ أنْ تسرِقَ أسماكَنا؟!

فأجابَ الفتى:

– أنا لمْ أفعَل ما يُشين يا سيِّدي. ولو كنت أريدُ أن أسرقَ لما اختَرتُ السَّمَكَ هدفًا لسَرقَتي. أنا أريدُ أنْ أؤَمِّنَ طعامي الآن.

قالَ الرَّجُل الثاني مُلِحًّا:

– أخبرْنا قِصَّتَكَ الحَقيقيَّة.

فقالَ الفتى عندئذٍ:

– حسنًا. لقد أخذَني رَجُلٌ طيِّب منَ المَيتَم وجعَلَني ابنَه.. وعِشْتُ عندَه مُدَّةً منَ الزَّمَن.. ثمَّ بدأتِ المَشاكِلُ في بيتِهِ.. وأثَّرَتْ عليَّ ففَضَّلتُ الرَّحيل. والرَّجُلُ الطيِّبُ لا بُدَّ يَسعى ورائي الآن. ووجودي هنا أفضَلُ مكانٍ أختبئُ فيه.

فتنَحَّى الرَّجُلان.. وراحا يتحادثانِ بصَوتٍ خافتٍ ويتشاوران. ثمَّ قالَ بعدَها الرَّجُل الثّاني:

– حَسنًا.. ليسَ لكَ عندَنا عَمَل. ولكن سنُبقيكَ هنا لأسبوعٍ.. تساعدُنا في أعمالٍ شتّى.. ونُطعِمُكَ من أكلِنا رَيثما تنجَلي أمورُك. وأمّا إذا كنتَ كاذبًا! وأنتَ هاربٌ منَ الشُّرْطَة.. فسوفَ يَعثرونَ عليكَ عاجلاً أم آجلاً.. صَدِّقني يا هذا.

وفرِحَ الولَدُ لقبُولِهِ بينَ الصيَّادين. وبَقيَ معَهُم زُهاءَ عشرَةِ أيّامٍ يُساعِدُهم عتَّالاً ومُنظِّفًا وغاسِلاً للأواني وأدواتِ الصَّيد. وذاتَ ليلةٍ رأى الولَدُ، وهو نائمٌ فوقَ إحرامٍ مفروش على أحجارِ الخفّان، شبَحَ الرَّجُلِ ذي اللِّحيَةِ البَيضاء يَنهَضُ من مُخدَعِه ويأتي ويَعبثُ بالحَقيبَةِ الصَّغيرَةِ وما فيها.. كأنَّهُ يتحَرَّى عنْ شَكٍّ يَطوفُ في ذِهنِه. لم يُحَرِّكِ الفتى ساكِنًا تَحاميًا المَشاكل. ورآهُ ينبُشُ بينَ ملابسِهِ الإنجيلَ وتَذكرَةَ الهُويَّةِ ورَاحَ يَنظرُ فيهما بمِصباحِ يَدٍ صَغير معَهُ. وأدركَ الفتى أنَّه افتُضِحَ أمرُه.. وعُرِفَتْ هويَّتُه وَهويَّةُ والِدِه الرَّجُلِ الطيِّب، وأنَّ ذا اللِّحيَةِ البَيضاءِ هذا لا يُحبُّه.

– مُنير سويدان!! قالَ المُحقِّقُ شَكيب مُدَوِّر لصَخر مُقاطعًا كلامَه. ثمَّ أضافَ أيضًا:

– وفتى مَيتَمِ العازاريَّة في برمَّانا هو أنتَ يا صَخر سويدان. فقالَ له مُحدِّثُه:

– حسنًا.. لقد وصلنا الآن إلى منتصَفِ الرِّحلةِ سالِمَين.. وما زالَ أمامَنا شَوطٌ كبير وهو بَيتُ القصيد!

ثمَّ قُرِعَ جَرَسُ الباب.. فنهَضَ المُحقِّقُ وهو يقول:

– لقد جاءَتِ المازَة.

ودَخَلَ خادمُ المَطبَخِ بعرَبَتِهِ المَصنوعةِ منَ الستَنلِسْ سْتيل المُزَخرَف، وأفرغَ حُمولتَها بلُطفٍ على طاولةِ الشُّرفةِ السَّوداءِ المُنخفضَة وذَهَب. سَكَبَ المُحقِّق كأسين.. ومَدَّ يدَهُ وتناولَ حَبَّتَين منَ البُزُورات.. وقال:

– تفَضَّل يا صَخر.. تفَضَّل. لقد بدأتْ تتَشكَّلُ في مُخيِّلتي سيناريوهات مُحتمَلة.. بدءًا من هذه النُّقطةِ التي أوصلتَني إليها وحتى ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥.

مَجَّ صَخر سويدان مَجَّةً من سيكارَتِه وعادَ إلى مُتابَعَةِ كلامِه:

سأتحدَّثُ الآنَ بصيغةِ المُتكلِّم.. كَوْني أصبَحْتُ أنا بَطلَ حِكايتي.. أليسَ كذلك؟

– وهوَ كذلِكَ. أجابَ المُحقِّق.

في صَباحِ اليَومِ التالي، نهَضتُ باكِرًا لأنِّي لم أنَمْ قطّ! وكانَ الصيَّادون في عرضِ البَحر منذ منتصَفِ اللَّيل يَرمونَ قِفَفَهم في الماء. خَرَجتُ من بابِ التَّخشيبَةِ، وكانت الظُّلمة تلفظُ أنفاسَها الأخيرة، وفجأةً! تعثَّرْتُ بشَيءٍ غريبٍ بَينَ الصُّخور والحَصَى حيث أنشُرُ الملابسَ على جذوعِ الأشجار. وَتحقَّقتُ من هذا الشَّيء.. فإذا هو جثَّة!! أصبتُ بذُعر شَديد!! فدَخلتُ مُسرعًا إلى التَّخشيبَةِ.. وارتدَيتُ ملابسي بلا أدنى تفكير.. وحشَوْتُ أغراضي كلَّها في حَقيبَتي، والقمصانَ المَنشورَة، ورُحتُ أعدو نحوَ الطّريق قبلَ أن يشعرَ بي أحَدٌ من الصيَّادين في الخِيَمِ القصَبيَّةِ المُجاورة. لقد حضَرَني مَشهَدُ الشُّرطةِ والأصفاد وقضبانِ السِّجن. ركَضتُ فوقَ الأزقَّةِ التُّرابيَّة نحوَ الشّارعِ العامّ لا ألوي على شَيْء. ورُحتُ أجتازُ المسافاتِ الطّويلةَ في شِبهِ هَرولَةٍ.. وللحظَةٍ كدتُ أقتنِعُ بأنِّي ارتكَبتُ جُرْمًا وأنا الآن طريدُ العَدالة! كنتُ أتلفَّتُ يَمينًا وشِمالاً علَّ أحدًا يُلاحقُني ويُريدُ الإمساكَ بي. ليسَ معي نقود، فقط رحمة الله هي رفيقي الوَحيد. وصلتُ إلى بلدَةِ

نهر ابراهيم السَّاحليَّة في المَساء.. ورُحتُ أبحَثُ عن ورشَةٍ أو عَمارَةٍ مَهجورَةٍ أبيتُ ليلَتي على سَطحِها. ولكنّي لم أحصَلْ على غايتي البسيطَة هذه. فقد طوَّقني فجأةً! في وسَطِ البلدَةِ سيّارتان خرَجتا منَ العدَم، ونزلَ منها رجالٌ تَحَرِّيُّون. وصاحَ بي واحدُهُم صَيحَةً مُرعبَةً، ويدُهُ على سِلاحِهِ المَشكوكِ في خَصرِه.. كأنِّي مُجرمٌ خطيرٌ واسمي مُدرَجٌ على لائِحَةِ الإرهاب:

– مكانَكَ يا صَخر سويدان.. وَيَداكَ في الهَواء!

وقفتُ مكاني كالصَّنَم! ألقيتُ حقيبَتي على الأرض ورَفعتُ ذراعيَّ فوقَ رأسي.

وهكذا ألقيَ القبضُ عليَّ.

وفي سيَّارةِ الشُّرطةِ انتابَتني نَوبَةٌ عارمةٌ منَ البُكاء. سألتُ التَّحرِّي بجانبي:

– ماذا فعَلتُ يا وَطَن؟

بقيَ صامتًا. وأعدتُ السُّؤال:

– هل ستُعيدونَني إلى والِدي؟ والِدي يبحَثُ عنّي أليسَ كذلِكَ؟!

فأجابَ التَحرِّيُّ بحَزْم:

– لا.. نحنُ نُريدُكَ أنت.. وستَعرفُ كلَّ شَيْءٍ عَمّا قريب.

فانتابني خَوفٌ مَشوبٌ بكآبةٍ غامضَة. كفكَفتُ دَمْعي.. وأدركتُ فداحةَ خطَئِي في تركي بيتِ والِدي منير سويدان. وحَضَرَني مَشهدُ دوري واللّحظات القلِقَة التي عشتُها أثناءَ عَودَتِه منَ السِّجن، كأنَّها تعويذةٌ لا خلاصَ منها البتّة. أنا شُجاعٌ بالنِّسبَةِ إلى صَبيٍّ في مثلِ عمري، ولكن ليسَ في لُعَبِ الكبارِ هذه. هناكَ جثَّةٌ وجَريمَة وَصَبيٌّ يَتيمٌ مُتبَنّى وهَاربٌ.. ستكونَ التُّهمَةُ مناسبةً لي وَعَلى قَدِّي وقياسي بالتَّمام. عرفتُ فيما بعد أنَّ ذا اللِّحيَةِ البَيضاء الذي عَبَثَ بحَقيبَتي وعرَفَ هُويَّتي هو الذي أخبَرَ عنِّي عندَما وَجدوا الجُثَّةَ وَجاءَتِ الشُّرطة. وهكذا أدخلوني إلى نَظارَةِ الأحداث حيثُ بَقيتُ شَهرًا قبلَ أن

يستجوبَني أحَد! والنَّظارَةُ صُوْرَةٌ مُصَغَّرَة عن جُهنَّم. فيها الأولادُ الأشقياء من عمر ثماني سنوات إلى الثمانية عشَر. هناكَ أذاقني كذِبُ الأولادِ وتهامُسُهُم عليَّ ألوانًا شتّى منَ الخَوف. قالَ لي واحدُهم أنَّ عقوبةَ جَريمةِ القتل هيَ المُؤبَّد، وسأبقى في السِّجنِ مدَى الحَيَاة! وآخرُ قالَ أنَّ عشرين سنةً كافيَة. وآخرُ أيضًا قالَ لي:

– الأفضَل لكَ أن تعترفَ فيخففوا الحُكم.. وإلاّ فلن تخرُجَ منَ السِّجن إلاَّ شَيخًا عَجُوزًا.

كنتُ أبكي أحيانًا، وأتجَالدُ وأتقوَّى أحايينَ أخرى. أنا لمْ ارتكِبْ جُرمًا.. وسيكتشفونَ براءَتي عمَّا قريب. ولكنّي لمْ أدركْ بأنَّهُ لساعةِ اكتشافِهِم براءَتي سأكونُ قد تحوَّلتُ إلى إنسانٍ آخر. القَهْرُ والظُّلمُ ولَّدَا فيَّ ثورَةً وقساوَة. والشَّرُّ في النّظارَة أقنعَني بأنَّ الحَياةَ صِراعٌ والبَقاءُ للغالبين. كانَ بَيْنَ هؤلاءِ الأولاد أيتامٌ كثُر أيضًا.. منهم السَرّاقُ ومنهم من يتعاطى ويروِّجُ المُخدِّرات ومنهم من حاولَ القتل ومن قتلَ أيضًا.. ومنهم من ابتُليَ بمصيبةٍ هوَ الآخر نظيري. بعدَ أيّامٍ.. لا أذكر كم.. جَاءَ مُنير سويدان إليَّ في سِجني. هالَه مَنظَري وشُحوبي! لقد رأيتُ نفسي في عَينَيه.. كنتُ كأنِّي شبَحٌ مُخيفٌ آتٍ من العالمِ الآخر. أكَّدْتُ له أنّي لم أفعَلْ شَيئًا.. وأكَّدَ لي هو الآخر أنّه لن يتخلّى عنّي، وسيوكِّلُ لي مُحاميًا. عرفتُ عندَها عُمْقَ مَحبَّةِ هذا الإنسانِ لي. حُبُّه لي كانَ سفينةَ نَجَاتي. وهكذا بَقيتُ في السِّجنِ لعشرَةِ أشهر قبل أن ظهَرَتِ الحقيقَة. وما ذقتُهُ في هذِه الأشهُرِ.. الدَّهر.. كانَ كافيًا لي. وفي نهايةِ المطاف أُخلِيَ سَبيلي.. وعُدتُ إلى بَيتِ مُنير سويدان.. لأكتَشِفَ هناكَ أنَّ زَوْجَتَهُ هَجَرَتْهُ وهو يَسْعَى للطَّلاق.